* نظرة فى مجموعة أبو المعاطى أبو النجا " الوهم والحقيقة"

للـــوهم والحقيقة حضور طاغ فى مجموعته أبو المعاطى أبو النجا ، الوهم راســـخ بـــاق ضارب فى الجذور ، والحقيقة كائن مخاتل يظهر ويختفى ، ويعذب من يجرى وراءه عذابا شديدا كلما ظن من يسعى إلى القرب من كنه الحقيقة أنه عثر عليها وجد كيانه كله – عقلا وروحا – غائصا فى بئر الوهم .

يهجـــم الوهم على بطل القصة الأولى : " الوهم والحقيقة " فيخترق دفاعات ليست هشة وحسب ، بل هى راغبة مرحبة يقول الوهم للبطل : إن زوجته تحب غيـــره . هكـــذا بـــلا مقـــدمـــات ولا أسباب . فيرسب فى قاع النفس هذا الوهم الضارى ، وينتشر حتى يصبح " الحقيقة " الوحيدة فى حياة الزوج ، زوجته تحب غيره ، وإلا ففيم جمالها الغريب هذا ووثوقا بنفسها وضحكتها من القلب وحزنها – أحـــياناً – وذبـــول عينيها ، وساعات الارق والإعراض عن الطعام والحكايات المقتضبة عن مشكلات العمل ومضايقات الطريق ؟

يعترف الزوج لصديقه بما يدور فى نفسه يقول الصديق : سوف تجن أراهن انك سوف تجن . تعشق الجنون . لو أردت أن تعرف فهناك ألف طريقة ولكنك لا تريد .

لـــم يقـــل الزوج لصديقه انه جرب طرقا كثيرة للوصول إلى الحقيقة راقب سلوك زوجته مع أصدقائه ، بل مع الصديق ذاته ، فوجد الطريق مسدودا بذكاء الـــزوجة تعامل الجميع على قدم المساواة ، كأنها تحبهم جميعاً بنفس المقدار ، كـــذلك لم يقل الزوج لصديقه أنه لو تخلى عن شعوره الداخلى بأن زوجته تحب

غيــره لضـــــاع . وفقد يقينه كله ، لقد أصبح الزوج " يحب " حب زوجته لذلك الآخـــر . يحبه لذلك الجمال الأخاذ الذى يضيفه على زوجته رغم اليقين المروع أنـــه هـــو شخصياً ليس مصدر هذا الجمال وأن الجمال ليس له ، وأن الآخر هو مصدره الوحيد .

عبثا حاول الزوج أن يواجه زوجته يقول لها أنه يحب . فتقول غير دهشة : أعرف فيقول : ناقص أن تقولى انك تعرفينها . فتقول : طبعاً أعرفها . تحبنى أنا وحـــين تعانقه وتحكم وثاق الذراعين حوله ويصبحان شخصا واحدا يزداد وثوق الزوج بأن زوجته تحب ذلك الآخر ، وانها تغمض عينها على صورته ، لا تنبس باسمه ، ولا تذكر اسم الزوج .

ويرحل الصديق وتنتاب الزوجة الآلام ويغشاها الحزن . فينشط عقل الزوج يصـــر علـــى أن يجـــد علاقة بين رحيل الصديق وأحزان زوجته التى لا ترحل . يغرق كلاهما فى أحزانه الخاصة . يدرك كل منهما آلام الآخر ، وينسحق الاثنان تحت مطارق ثقيلة ، ينفصلان تماما . وفجأة تعود للزوجة ملامح وجهها القديم . تعود نظرتها وضحكاتها وسعادتها وصوتها وضعفها وأحزانها وتصبح من جديد جـــزءا مـــن حياة الزوجين اليومية . تعود دون أن يملك الزوج لها رفضـــا أو قبولا . ويظل الزوج فى انتظار عودة صديقه الغائب ، واثقا من براءته من حب الزوجة ، وإن لم يزايله وهمه بأن الزوجة تحب رجلا غيره .

هـــل الـــزوج مجنون يخيل اليه ؟ تنتهى القصة وهو يخاطب قارئاً مفترضا اتخـــذه صـــديقا له فى غيبة الصديق . يقول الزوج للصديق المفترض : اسمعك تهمس بأن جنونى مؤكد ويحذره من أنه قد يفتح عينيه ذات صباح ليجد زوجته تحب رجلا آخر !

أمـــا نحـــن القـــراء فمع وضوح براءة الزوجة والصديق لنا ومع تبيننا أن الزوج قد دفعه الوهم إلى حافة الجنون أن لم يكن قد وقع فى الحفرة فعلا ، فان هـــذه القضـــية لا تشغلنا كثيراً . ما يلفت أنظارنا حقا هو قدرة الكاتب الواضحة علـــى أن يخلق الجو النفسى المناسب الذى يحتضن الوهم وينميه ، ويجعل منه شخصـــية رئيســـية للـــوهم هو السيد فى هذه القصة . هو الذى يرتب الاحداث ويحـــرك الشخصيات ويعلن على الملأ لست وهما . أنا الحقيقة ، ومن ثم يروح الوهم يعربد فى نفس البطل ولا يعود قادرا على الفكاك منه .

* * *

فـــى القصة الثانية فى مجموعة أبو المعاطى أبو النجا ، وعنوانها " مقهى الفـــردوس " تخفـــت الاضـــواء ، ويسود الغموض ، ويتحول رواد المقهى إلى معـــارف عابـــرين ، لا يعـــرف راوى القصـــة أهم مهتمون به فعلا أم هم عنه منصرفون ؟ .

تـــرى أيكونون أعداء ينتظمون فى دوائر ومثلثات لا تلبث أن تلتقى فتصبح حـــوله دائرة واحدة مغلقة ، أم أن اجتماعهم على هذا النحو محض صدفة ؟ منذ مدة وهو يلاحظ أن الحدود تتلاشى بين النوايا الحسنة والشريرة . فإذا كان أوان الجـــد قـــد أزف - إذا كانوا قد اكتشفوا عزمه على الهرب فسوف يقاومهم حتى الموت . أولئك الذين كانوا أصدقاءه يوما ما . أحبهم جميعا حين جاء من قريته وليس فى جيبه أكثر من ثمن فنجان شاى .

قال له " عزيز " انتظرنى حتى الثانية عشرة . إن لم آت فامض أنت وحدك فـــى الطريق الذى رسمته لك . وقبل أن يلتقى عقربا الساعة عند الثانية عشرة دخل " غريب " ذو الوجه المستدير والنظرة الثلجية ، فأحبطت رغبة الراوى فى

الـــثورة علـــى رواد المقهى الاوغاد الذين تركوا له مبادئه وانصرفوا إلى متابعة مباريات القدم !

كـــان عزيز قد عقد أمامه مقارنة بين ملعب الكرة وملعب الحياة على عكس الملعـــب الأخير يسود ملعب الكرة القانون يحرص عليه الطرفان ملعب مكشوف للاعبين والجمهور والحكام الخطأ فيه واضح ، وكذا الصواب . لا مكان فيه لأن تخدع أحداً سوى خصمك .

اذ ذاك قال الراوى : ظننت أن لا فرق بين ملعب الكرة وملعب الحياة إلى أن اكتشفت اننى الابلة الوحيد الذى يحترم قواعد اللعب ، وينتظر عبثا صفارة الحكم ضد الخطأ ويستنجد بجمهور لا وجود له !

وها هو ذا غريب ذو النظرة الثلجية يفتح معه موضوع كرة القدم ، ويطلب أن يناقش معه سؤالا تنشره إحدى الصحف المسائية : كرة القدم ، لماذا أصبحت لعبة العالم المفضلة ؟ ترى أيكون غريب قد كشف سر علاقته بعزيز ، فجاء إلى المقهـــى ليعلن السر على الرواد بطريقة مسرحية ؟ إن كان هذا مقصده فسوف يفجـــع الراوى غريبا فى توقعاته أن يتنصل من العلاقة . وسيتعرف بها اعترافا مـــدويا يـــردد فيه كلمات عزيز نبضها وروحها . اذ ذاك قد يتحرك نفر من رواد المقهـــى يكونون قد فهموا ما فهمه هو من عزيز فيعلقون غريب فى المدخل من رباط عنقه .

يلتقى عقربا الساعة عند الثانية عشرة فيرى الراوى عنق عزيز يتدلى من بين العقربين الملتحمين يتوقع أن يبدأ غريب لعبته القذرة ، ولكن هذا يحادث من حـــوله همســـا ولا يبدو على وجهه الناعم أى اضطراب . وحين يجد الراوى أن الطريق أمامه مفتوح للهرب يترك حقيبته فى المقهى ويمضى فلا يلبث أن يجرى

وراءه غـــريب ويعـــيدها إليه على اعتبار أنه نسيها ، وحين يفتحها الراوى فى الطريق الريفى يجد بها جثة عزيز ! .

هـــذه قصة سياسية تتوسل لايصال رسالتها الينا بالايحاء حينا ، وبالهمس حينا آخر، وبخفض الاضواء والغموض المتعمد حينا ثالثا ، بهذه الوسائل يتجنب الكاتب الصوت الجهير ، والتعليم المباشر ، ويخلق لقصته جوا مناسبا نندمج فيه طائعـــين ونـــروح نحاول حل اللغز الذى انتقلت به جثة عزيز من موقع الجريمة إلـــى حقيـــبة راوى القصـــة ، هل كانت حقيبته فعلا ، أم أن غريب سلمه حقيبة أخـــرى لم يدر من فرط ارتباكه أنها ليست له ؟ هذا الغموض يبعث فينا الترقب ويثيـــر الخوف ولكنه لا يعتم على مضمون القصة بحال ، يبقى واضحا ما تريد القصة ان تنقله إلينا : صديقان اتفقا على أن يخوضا طريق الثورة واحسنا الظن بجماهيـــر الناس ، ولكن الجماهير تتركها وتنصرف إلى ملاعب الكرة . خطأ من هـــذا ؟ تكاد القصة تصرح بأنه خطأ المناضلين فى المحل الأول ، كان ينبغى أن يديـــرا النضـــال بالطـــريقة التى تدار بها المباريات العلانية – الوضوح – تمايز الصواب من الخطأ – بروز الأهداف – أما وهما لم يفعلا هذا ، فقد خسرا المعركة ولـــم يـــبق إلا الهـــرب ولـــو مؤقتا ، ولكن قوى الملاحقة أقوى وأسرع من كل محاولة !

* * *

فـــى " الزيارة " يعاود أبو النجا البحث عن الحقيقة ويجد هنا أيضاً كما وجد فـــى قصة : الوهم والحقيقة – أن الحقيقة لها أكثر من وجه . من هو المخطىء ومـــن المصيب فى مجموعة الشخصيات التى تنتظمها القصة ؟ أمين الذى أغرى – وهـــو صبى – صديقه حسين على أن يهمل عمله اليدوى ويصبح تلميذا يشغل

نفســـه بالدروس وهو غير مؤهل لذلك ، فأصبح حسين متشردا جوالا ، يضحك مـــنه الكـــبار والصـــغار فترة ثم يهملونه لأنه لم يعد مسليا ؟ أم الأم التى خلفها زوجها المتشرد وحيدة فسحبت أولادها من بيت عمهم ، الميكانيكى فتوح بدعوى انهم يعملون لحسابه مجاناً وهم أولى بكل قرش يستطيعون أن يكسبوه من العمل لـــدى الغير ! أم ترى المسئول هو المنهراوى اللص الذى يخشاه الجميع والذى طـــرق باب الأم بليل ورجاها أن تخفيه عن مطارديه ، ثم أصبح يتردد على بيتها فـــى الليل أو النهار ومعه النقود والثياب ويحملها حملا على قبولها متذرعا بأن الأولاد محـــرمون من الأب وهو محروم من الأولاد ! أم أن سكان القرية جميعا مســـئولون عما تجد الأم وأولادها من شقاء . لانهم يخشون المنهراوى اللص ، ويدفعـــون لـــه الاتاوة ، عن طريق هبات للأم يزعمون أنها نصيبها فى الزكاة ! وهل الأب الوقور الذى يلوم ابنه أمين فى آخر القصة للضرر الذى ألحقه بزميل صباه حسين غير مسئول هو الآخر عن الضرر العام الذى حلق بالاسرة وبالبلدة وبأمين ، لأنه بدوره يدفع للمنهراوى اللص إتاوات ليتوقى شره .

كلما أعمل أمين النظر فى الحقيقة ازدادت تعقيدا ، حتى وهى تزداد وضوحا الكـــل فـــى القصة مدان ، وإن شاء الكاتب أن أن يتلاقى كل من أمين وضحيته حسين على الود فى آخر القصة فكل منهما صنو الآخر ، لا أمين تعمد الاساءة ، ولا حســـين خلا من تقبل للنهج الذى رسمه له صديقه . كلاهما وجهان لشخص واحد . تبرع القصة فى تهيئة جو الغموض الذى يكتنف تصرفات الافراد وتصور بطـــريقة مقنعة وجهات النظر المتعددة مرددة مع بيراندييللو : " لكل حقيقة " ثم تخـــرج من تعقيد الرأى والراى المضاد إلى بر آمن هو الصداقة الذى قامت بين أمـــين وحســـين من الصبا فبم تفلح تقلبات الاحداث وطول البعد فى النيل منها ، وأثناء هذا كله ترسم القصة لوحة تشكيلية بارعة ، يكتنفها النور والظل وتصور

أحوال القرية المصريه عن مبعدة بشكل غير مباشر ، فتظل القضية هى البطل والقرية هى الخلفية الملائمة .

* * *

واختار من باقى قصص المجموعة اثنين هما " ذلك الشتاء " و " وقت الزوال " هاتان قصتان ناعمتان تشتعلان بالجرى وراء الصعب المراوغ الذى لا تمسكه النفس الا بالعهد الجهيد ، فى القصة الأولى تحفظ واعية الطفل يوما من أيام الشتاء ركب فيه سيارة ريفية مجهدة تكدس فيها الركاب وتعلقوا بأسطحها من الخارج حتى لكأن السيارة كانت تتدثر بهم من برد الشتاء والطفل قابع داخل السيارة تحجب زرقة جلباب فلاح كان يقف على أفريز السيارة عن عينيه زرقة السماء . الطفل حزين حزنا متعدد الاسباب تجمع من مسارب شتى وأصبح ألما لا سبيل للتخلص منه ولا رغبة ولا ضرورة فى مقارنته . أصبح الالم هو كيان الطفل كله . وإذ ينضغط جسد الطفل تحت وطأة التكدس الفظيع داخل العربة ، وإذ يفقد سيطرته على أعضائه كلها واذ تبلغ اللحظة مداها الذى يتحطم فيه الشىء أو يولد من جديد يعود لطفل كيانه كاملا ، ويلفه رعب مرح مستبعد ، لقد كف المطر عن السقوط وبانت زرقة السماء وانتصر الولد على الخوف والموت ، وأصبح وجوده فى صلابة الحزن الأليم الذى تخلف له عبر التجربة وزامله عبر عشرين شتاء ، ثم أصبح يعوده كلما اختفت السماء خلف السحب . وغشى الدنيا الظلام المنذر يحدث شىء مماثل لطفل آخر فى القصة الثانية " الزوال " هذه المرة يفتن الطفل بساعة الزوال فور ما يشرح " سيدنا " فقيه الكتاب للتلاميذ الصغار معنى الكلمة ، يقع الولد فى أسر الكلمة ويروح يحاول أن يمسك بلحظة الزوال هذه ، واقفا فى وقدة الشمس ، فى الأرض الخلاء ، حتى

تحـــين اللحظة فيشعر شعورا قويا بأن الله قد خلق الدنيا كلها ، وأنه بعد خلقها اخـــتارها لـــتكون البداية لحركة الكواكب فى السماء ولكن اللحظة الثمينة تراغه دائمـــاً وتهـــرب منه فلا يستطيع إمساكها . ومن بعد ترتبط ساعة الزوال بسحر السياحة فى ترعة القرية .

كان الولد قد شاهد الصبيان يسبحون فى رشاقة وجمال فتاق إلى أن يسبح كمـــا يسبحون . ولكنه أوشك على الغرق ورأى وهو يغطس ويطفو حياته كلها - بالعرض وليس بالطول - الأيام فيها متجاورة ، بلا زمن لحظة ملأى بكل شىء ، لمـــياه جـــدران زجاجية بها فقاقيع تتحرك إلى أعلى وأسفل ، ومن خلالها يرى الـــولد كـــل مـــا مر به وكل ما سوف يمر . يرى جسده مسجى بلا حراك على الشاطىء وسط حلقة من الصغار والكبار بينهما أم وأب حاسرا الرأسين حافيان . ولكن اللحظة لا تدوم . بل ينقذ الحاج أحمد العجوز فى الستين - الولد من موت محقق .

تنضم هذه اللحظة الكاشفة القصيرة المدى إلى لحظة الزوال المراوغة ويظل الـــولد يحلـــم بأن يمسك بهما معا ويمضى يتساءل : هل الولد الذى يبقى غائصا أطـــول وقـــت ممكـــن فى الماء يمسك بلحظة الزوال الغامضة ؟ ويبقى الولد فى تســـاؤلاته وحيرته وتوقه حتى يجسر أخيرا على اقتحام مياه الترعة ويسبح فيها ويصـــل إلـــى الشط الآخر ، لم يعد الموت يخيفه بعد أن عاينه وهو يوشك على الغرق وزادت استهانته به بعد أن مات الحاج أحمد الذى أنقذه من الهلاك .

تتشابه القصتان موضعا وصياغة وتصبو كل منهما ، اذ تحاول تصوير سر الحياة المراوغ الدائم الظهور الدائم الاحتجاج إلى أن تصبح قصصا شعريا يساعد فـــى هذا لغة الكاتب الرصينة البليغة فى غير ما حذلقه ولا تشدق . لغة افتقدناها وحزنا لغيابها فى بعض زملاء أبو المعاطى أبو النجا ، الذين يخطئون فى النحو

وفـــى الصـــرف وفى تركيب الجمل والذين يظنون انهم لا يقترفون جرما فى حق أنفســـهم وحـــق فنهم وفى حق قرائهم اذ يكرسون الخطأ ولا يبالون بل ويتبجح بعضـــهم فيقول ان الخطأ وارد فى كتاباته ولكنه لديهم ، ولم أر موسيقيا ذا بال يفخـــر بأنـــه لا يهتم بضبط أوتاره ولا فنانا تشكيليا يزعم أن أحكام قبضته على الظـــل والنور واللون شىء قليل الوزن ولكنها محنة التسيب والاستسهال وتحية لكاتبنا الجيد الديباجة ، الصادق فى فنه أبو المعاطى وتحية أخرى لنجيب محفوظ الـــذى يضع فوق مكتبه كتابا فى النحو يلجأ إليه كلما أراد وهو يريد فيما يبدو ، وبعد هذا العمر الفنى الطويل !